التحديات
والبنية الفكرية الإسلامية المعاصرة

— 1 —

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبياناً لكل شيء، الحمد لله الذي أنزل القرآن رحمة منه ويهدي للتي هي أقوم، الحمد لله الذي أنزل القرآن عربياً لعل الناس يعقلون، والصلاة والسلام علىٰ الصادق الأمين، المرسل للناس كافة ورحمة للعالمين، مبشراً ونذيراً وداعياً إلىٰ الله بإذنه وسراجاً منيراً، والمبعوث متمماً للأخلاق، فكان في إسلامه وإيمانه وعلمه وعمله علىٰ خلق عظيم.

وبعد:

لم تنشأ حركة فكرية أو سياسية بين العرب والمسلمين في القرن الأخير، إلّا وهي تبرر لوجودها بحالة الضعف التي حلت بالأمة العربية أو الإسلامية، فمنذ أواخر عصر الخلافة العثمانية وحتىٰ اليوم، والجمعيات والأحزاب والحركات العربية والإسلامية تقوم لمعالجة هذه الأوضاع المتردية في الداخل، ولمعالجة التخلف عن ركب التقدم العالمي، ومن أوائل المقدمات الفكرية ما تقدمت به «جمعية العربية الفتاة» مبررة لوجودها، ومعللة لتأسيسها فقالت في مقدمة دستورها: «إن الأمة العربية في مؤخرة الأمم اجتماعاً واقتصاداً وسياسة، فوجب علىٰ قادة نابتتها المدركين أن يبذلوا حياتهم فيما ينهض بها من هذا التأخر ويتدبروا فيما يؤول إلىٰ ترقيها لتدرك معنىٰ الحياة وتحتفظ بحقوقها الطبيعية».

علىٰ هذا المبدأ الأساسي تعاهد في أوروبا في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني لعام 1909م، فريق من النابتة العربية علىٰ القيام بما تفرضه عليهم الوطنية لتعزز بهم مركزها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي حسب ما تتطلبه طبيعة الوجود، وجاء في مادتها الأساسية

الأولىٰ: تدعىٰ هذه الجمعية: «جمعية العربية الفتاة» وغايتها النهوض بالأمة العربية إلىٰ مصاف الأمم الحية[1].

— 2 —

وسواء كانت هذه هي البداية أو نقطة الانطلاق لهذه الجمعيات والحركات أو غيرها، فإنهم سواء في التذمر من الحاضر الذي كانوا يعيشونه ولا زالوا، وهي وحدة مشتركة في الشعور بالمشكلة أولاً، والحاجة إلىٰ التغيير والنهضة والإصلاح ثانياً، أي أن هناك وحدة في الإحساس وهو الاعتراف بالضعف والتخلف، ووحدة في الهدف وهو التغيير والإصلاح والتقدم، وهذه قواسم مشتركة مهمة لكل أبناء وطن واحد، وأبناء قضية واحدة، ومشكلة واحدة، وحاضر واحد، حتىٰ يتعاونوا في صناعة مستقبل واحد أفضل.

هذه الوحدة مهمة ومبشرة بالخير، بالرغم مما جرىٰ عليه الاختلاف نظرياً بين هذه الحركات الوطنية والقومية والدينية في داخلها أو مع بعضها في تحديد أسباب الضعف والتخلف، وبالرغم مما جرىٰ عليه الاختلاف نظرياً وعملياً بينها علىٰ طريقة التغيير والإصلاح، وبالرغم مما جرىٰ عليه الاختلاف العقدي والأيديولوجي بينها علىٰ فهم المبدأ الذي يوحد الأمة، وبالرغم مما جرىٰ عليه الاختلاف السياسي علىٰ طبيعة وهيئة وشكل وصيغة الهدف السياسي المنشود، لأن هذه الاختلافات بالرغم مما تحمله من قدرة علىٰ التفريق والتباعد والصراع بين الأطراف، إلَّا أنه كان من الممكن أن لا تكون سبباً للعجز عن الوصول إلىٰ الأهداف.

بل بالرغم من كل ذلك وغيره كان من الممكن التغلب عليها وتجاوزها، بل جعل تلك الاختلافات ـ والأفضل تسميتها بالنظريات والاجتهادات ـ عوامل قوة لتحقيق النهضة ولو بخطىٰ بطيئة، لو تم استثمارها علىٰ أساس شرعية الاختلاف بين الأخوة[2]، والاحتكام إلىٰ

---

(1) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط2، 1391هـ ـ 1971م، ص 485.

(2) انظر: شرعية الاختلاف بين المسلمين، إسلام واحد وتعددية فقهية وعقدية وسياسية في الاجتهاد والشورى والدولة، عمران سميح نزال، دار قتيبة، دمشق ـ بيروت، ودار القراء بعمان، الطبعة الأولى، 1425هـ ـ 2004م.

إرادة التمثيل الحقيقي للفكر والاجتهاد الراجح في المجتمع، دون طغيان أحد الأطراف أو الحركات على الأخرى، وبالأخص من القوى الوطنية والقومية التي كانت مستبدة في الحكم الحزبي والعسكري في تلك المرحلة في الدول العربية المؤثرة.

إلَّا أن الذي تم هو أن الحركات الفكرية والأحزاب الأيديولوجية العربية والإسلامية هي أول من مارس الاستبداد الفكري على أعضائها وعلى الآخرين من الحركات الفكرية الأخرى، فضلاً عن ممارستها العداء الفكري في حق كافة القوى التي خالفتها في اجتهادها، سواء في معرفة أسباب التخلف أو في معرفة أسباب العجز عن الوصول إلى الأهداف، وكل حركة كانت تتهم الحركات الفكرية أو الأحزاب الأخرى إما بالجهل أو التخبط، وإلَّا فالتهمة بالعمالة أو الرجعية أو الكفر أو الخيانة.

— 3 —

وهذا ما يجعل التفكير في معرفة أسباب الضعف الداخلي يتعلم من الماضي القريب والبعيد، فيجتهد في أن لا يجعل من بحثه عن شروط النهضة عثرة أخرى في طريق التقدم ولو في الأساس النظري الفكري على الأقل، ونرى أن الأولوية في تناول كل قضية فكرية يجب أن يسبقه اتفاق على شرعية الاختلاف بين المسلمين، طالما أن المسلمين يجتهدون في إخراج أنفسهم مما هم فيه من الضعف والتخلف، ونقول شرعية الاختلاف بين المسلمين، لأن من يعمل للنهضة والإصلاح في المنطقة العربية اليوم هي الاجتهادات والحركات الفكرية المسلمة، وهي المرشحة للازدياد والتوسع غداً، بحكم قناعتها بالإسلام عقلياً وعلمياً أولاً، وبحكم أن الآخر اختار محور الإسلام ليكون هو مدار الصراع مع العرب وغيرهم من المسلمين ثانياً.

وفضلاً عن ذلك فمنذ عقود والاجتهادات العربية الإسلامية هي التي تتبنى قضايا الأمة العربية المسلمة، وليس من الممكن أن يوجد في المنطقة العربية دعوة فكرية أو حزبية تتجاهل الإسلام في معادلة التغيير والإصلاح والنهضة، مما يتطلب أن تتوجه الجهود إلى تنظيم هذه الاجتهادات الفكرية المتعددة في العمل النهضوي الحقيقي، حتى يكون إنتاجها

العلمي والعملي أفضل، وحتىٰ لا تتكرر أخطاء القرن الماضي في التصادم والتناحر بين هذه القوىٰ، بسبب الاختلاف في كيفية العلاج وأدواته.

وإذا كانت شرعية الاختلاف بين المسلمين ضرورية في المشروع النهضوي المعاصر، فإنها كانت ولا زالت إحدىٰ الروافع القادرة علىٰ حل الأزمات الفكرية التراثية بين من كانت توصف بالمذاهب والفرق الإسلامية، والتي نقترح وصفها بمدارس الاجتهاد الإسلامية التاريخية أو المعاصرة، مثل المدرسة المعتزلية أو المدرسة الأباضية أو المدرسة الزيدية أو المدرسة الجعفرية أو المدرسة الحنفية أو المدرسة الشافعية أو المدرسة الحنبلية أو المدرسة الأشعرية أو المدرسة الظاهرية أو غيرها، وبين الحركات والأحزاب المعاصرة.

— 4 —

إن جدوىٰ الكشف عن أسباب التخلف الكامن في أعماق الإنسان العربي والمسلم يجب أن تعود إلىٰ اللحظة التي ولد فيها الاستبداد الفكري الداخلي بين المسلمين، تحت عناوين كثيرة، من أشهرها: إغلاق باب الاجتهاد، ولا جدوىٰ من دراسة أسباب التخلف في الحاضر دون مساءلة حالة الضعف في الماضي، والفارق بين الضعف في الماضي والتخلف في الحاضر، أن ضعف الماضي كان موجوداً بين المسلمين، ولكنه لم يكتشف إلَّا بعد اكتشاف التخلف أمام الآخر الدولي، ولا جدوىٰ من بحث أسباب التخلف إذا لم يكن الهدف إيجاد وعي جديد، يمتاز: بالعقلانية أولاً[1]، والإيمان بالإسلام علمياً ثانياً، والقدرة علىٰ الإنجاز ثالثاً، وبالقدرة علىٰ إزالة العوائق التي تواجه الوعي الجديد مهما كان نوعها ومهما كان تاريخها رابعاً.

وهذا منوط بتوجه كل جهد عربي واجتهاد إسلامي إلىٰ بناء فكره وعقله وعلمه بحرية

---

(1) حول مفهوم العقلانية التي يدعو لها المؤلف انظر كتاب: المدخل العلمي والمعرفي لفهم القرآن الكريم، (نظرات في التجديد المنهجي)، للمؤلف، دار قتيبة، بدمشق وبيروت، ودار القراء، بعمان، الطبعة الأولى 1424هـ/ 2003م، ص 133.

حقيقية، سواء كان من مسلم واحد أو من مجموعة مسلمين مدركين للتحديات الداخلية والخارجية التي تواجه أمتهم، أو من الأحزاب العاملة في هذا المجال، ويتوجه الجهود الصادقة والجريئة والشجاعة إلىٰ مواجهة المشاكل والأزمات التراثية والمعاصرة، وبالأخص التي تقف حجر عثرة في طريق النهضة، مثل ضعف الشخصية الفردية المسلمة، وضعف الشخصية الاجتماعية المدنية بين المسلمين، وانتشار العصبية العشائرية الجاهلية، والأخذ بالتقليد والمنهجية الاتباعية التراثية، والاستبداد الفكري، والتنازع الفقهي بين المذاهب، والتناحر العقدي بين الفرق، وغيرها.

والذي نوصي به شباب المسلمين أن يقدم كل صاحب قراءة علمية منهم، وكل صاحب عبادة علمية منهم، وكل صاحب اجتهاد فقهي أو عقدي أو سياسي، أن يقدم رؤيته الفكرية في كيفية تحقيق النهضة، وليس كصاحب قيادة فكرية في النهضة ويريد من المسلمين الآخرين أن يتبعوه ويسيروا وراءه دون مشاركة فكرية ولا اجتهاد سياسي، إن المطلوب اليوم هو المشاركة المعرفية والعقلية والعلمية والفكرية من أفراد المسلمين وشبابهم وأحزابهم، سواء كان الاجتهاد المقدم علمياً حراً معاصراً أو اجتهاداً مقيداً بمدرسة تراثية تاريخية.

المطلوب هو الازدياد في العبادة العلمية والاجتهاد الفكري الفقهي والعقدي والسياسي من أكبر عدد ممكن من شباب المسلمين، ليقدم كل واحد منهم بنيته الفكرية التي يقترحها علىٰ جموع المسلمين، يقدمها اقتراحاً وحواراً ونصيحة وتوصية لا فرضاً ولا استبداداً، ويعرضها عليهم حتىٰ يكون القرار لهم في قبولها وتأييدها أو التعديل عليها، أو انتخاب بنية فكرية أخرىٰ للمجموعة التي يشارك في جلساتها، لمواصلة تشكيل بنية فكرية متجددة كلما زاد عدد القراء المفكرين والمجتهدين، وكلما زادت المجالس الفكرية انتشاراً بين المسلمين، في كل تجمعاتهم السكانية والقروية والمدنية والقطرية.

– 5 –

هذه المجالس العلمية تسمىٰ شورات علمية إسلامية، وفعل الشور في اللغة: إبداء شيء وإظهاره وعرضه وأخذ الشيء، وهو مشتق من شور العسل أي استخلاصه[1]، والشورة العلمية فيها إبداء الآراء، وإظهار الأفكار، وعرض الاجتهادات، وأخذ أحسنها، عن طريق استخلاص الاجتهاد الأحسن وترجيحه من بين الأفكار المتداولة، لأنهم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وهي عملياً مجالس الحوارات والتشاور بين شباب المسلمين في كل مكان وزمان يختارونه ويجتمعون فيه مهما كان عددهم، تنشأ هذه الشورات بإرادتهم واختيارهم، ليتشكل من مجالسهم العلمية الحرة قيادة فكرية بإرادتهم العلمية الحرة، وليس باجتهاد واحد منهم فقط مهما أوتي من العلم والجسم، ولا بالاستبداد الفكري لمؤسس معين، ولا لقائد ملهم ولا لشيخ عظيم، ودون أن تحمل هذه الاجتهادات الفردية أو الشورية وظيفة الدعوة إلىٰ فكرها واجتهادها ولا إلىٰ بنيتها الفكرية، وإنما حصر الدعوة إلىٰ الإسلام والإيمان المشترك به، وأما نوع الاجتهاد والفكر المنتج فهو للعرض والتعارف المعرفي والعلمي بالشورىٰ العلمية.

والنصيحة في ذلك أن يتبين كل صاحب قراءة واجتهاد إسلامي أنه يبدي ويظهر ويعرض علىٰ إخوانه المسلمين اجتهاده ولا يدعوهم إليه، وإذا كان له دعوة فهي إلىٰ الإسلام، وهو قرآن كريم وبيان نبوي فقط، أي بالدعوة إلىٰ التمسك بالقرآن الكريم والبيان النبوي الشريف كما هو في نصوصه الأصلية، أما اجتهاده فهو فهم للإسلام، وهو فهمه الخاص به، وإذا عرض فهمه واجتهاده علىٰ أخيه المسلم أو إخوانه المسلمين فمن حبه ونصحه لهم، ولهم حق الاقتناع به أو عدم الاقتناع به، وفرق كبير بين الدعوة إلىٰ الإسلام والدخول فيه والاقتناع به، وبين الدعوة إلىٰ اجتهاد معين لعالم أو مفكر مسلم أو إلىٰ مدرسة إسلامية معينة دون أخرىٰ، كما هو الحال مع أغلب المدارس الإسلامية التراثية المذهبية الفقهية والعقدية والسياسية، أو مع الأحزاب الفكرية العربية والإسلامية المعاصرة.

---

(1) انظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، 541 و542.

— 6 —

إن المسلمين اليوم أمام ضعف داخلي وتخلف عن الآخرين، وأمام تحديات داخلية وخارجية كثيرة، وقليل من العرب والمسلمين جعلوا الأولوية في طريق التغيير لمجاهدة المحتل عسكرياً، وقليل منهم جعلوا الأولوية لمساومته سياسياً، وقطاع كبير منهم جعلوا الأولوية لمنابذته فكرياً ومقاومته ثقافياً ومنازعته حضارياً، وأما الغالبية فهم مشاهدون صامتون أو محايدون، والسؤال هو عن هذه الغالبية المشاهدة الصامتة أو المحايدة، لماذا هي كذلك؟ وما هي قضيتها؟ وكيف تخاطب لتشارك أمتها ونفسها في الخروج مما هي فيه من العنت والظلم والضعف والتخلف؟ حتىٰ لو كان بعضهم ميسوراً مالياً، أو من المنتفعين مادياً من ظروف الضعف والتخلف.

فإذا كان العرب والمسلمون عاجزين عن الإنجاز المادي القوي، أو النهضة السريعة، مثل العجز عن إيجاد دولة عربية إسلامية واحدة لهم، أو اتحاد متين من الدول العربية الإسلامية، فإنهم أمام تحدي الإنجاز الفكري الصحيح، وهذا متاح لهم والفرصة بين أيديهم، لأنهم جميعاً يتقبلون الإسلام ديناً حقاً وصدقاً من الله تبارك وتعالىٰ بإرادتهم الحرة، وآمنوا بالقرآن الكريم كتاب حق وصدق ويهدي للتي هي أقوم باختيارهم العقلي والعلمي، وأن النبي عليه الصلاة والسلام قد أبان لهم معاني القرآن والإسلام، وقد بلَّغ الرسالة وأدىٰ الأمانة كاملة وافية، وهم شهود علىٰ ذلك، ولذا فإنهم مطالبون علىٰ أساس هذا الإيمان المشترك بالإسلام، أن تتعاون اجتهاداتهم الفكرية والعلمية علىٰ إفراز بنية فكرية نهضوية مشتركة، تتساوىٰ فيها حقوق كل الاجتهادات الفردية والحوارية والشورية والحزبية التراثية والمعاصرة في تكوين قيادة فكرية متجددة تقود حركتهم العلمية والعملية.

وهذا يتطلب أن تتعاون جهودهم علىٰ أساس شرعية الاختلاف بين الاجتهادات الإسلامية، وعلىٰ أساس رفض الاستبداد الفكري، ورفض التوحش في فرض الآراء والأفكار الاجتهادية علىٰ المسلمين الآخرين، حتىٰ إذا حانت أيام التغيير الجماعي، وهي آتية لا محالة، مصداقاً لقوله تعالىٰ من سورة آل عمران المدنية: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ

قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3/ 140] كانت الأمة بكافة قواها العاملة مهيأة ومؤهلة معنوياً وفكرياً واجتماعياً وعلمياً للقيام على نفسها بما يصلحها.

إن ختم النبوة برسالة الإسلام يعني: أن المسلمين هم ورثة الشهادة على الناس، ولا تكون وراثة الشهادة إلَّا بفهم الإسلام وتفسير القرآن وبيانه النبوي، بما ينفع الناس في حياتهم الدنيا وليس للحياة الآخرة فقط، ولا تعارض بينهما إلَّا عند من يفترض تعارض مصدري تكوين العقل، وهما المصدر الدنيوي والمصدر الديني، وهذا افتراض باطل معرفياً وعقلياً وعلمياً وقرآنياً، لأن تعريف العقل في النظرية المعرفية العربية فيه القدرة على جمع المصدرين في بنية معان واحدة، أي في عقل إنساني واحد كما سيأتي إن شاء الله، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

عمران سميح نزال

تمهيد

مفهوم الاستبداد عربياً

ـ 1 ـ

قد يكون من الضرورة بداية بيان معنىٰ عنوان الكتاب الذي نحن بصدده، لسانياً ولغوياً [1]، وبالذات معنىٰ كلمة الاستبداد في اللسان العربي أولاً، حتىٰ يكون استعمال هذه الكلمة في مجال تداولها وتوظيفها صحيحاً، وبالمعنىٰ الاجتماعي للكلمة ثانياً، لأنه يبين الاستعمال العقلي لها، وبالمعنىٰ الفكري ثالثاً، لأنه الأساس النظري لكل استعمال لها، والمعنىٰ الأخير، أي الفكري هو موضع هذه الدراسة، ويمكن وصفه بالمعنىٰ الاصطلاحي للكلمة، لأنه استعمال للمعاني اللسانية واللغوية فكرياً.

ودواعي ذلك أن للناس معان متعددة لكلمة الاستبداد، لعل أشهرها المعنىٰ السياسي [2]، ولكن دراسة معنىٰ هذه الكلمة لغوياً ضروري لبيان المعنىٰ العقلي الاجتماعي لها، وهو ما نسعىٰ لبيانه ونرجو أن نوفق في توظيفه لسانياً وفكرياً، كأحد الأدوات النظرية لمعالجة أحد أو أهم أوجه الأزمة العربية والإسلامية المعاصرة، وهو ما نطلق عليه الاستبداد الفكري، دون التقليل من أهمية أو خطورة أوجه الاستبداد الأخرىٰ.

---

(1) يفرق المؤلف بين المعنى اللساني وهو المعنى العقلي المستعمل بين الناس، والمعنى اللغوي وهو المعنى الموروث من معاجم اللغة والتراث العربي، دون أن يكون بينهما تباين أو تعارض بالضرورة، للمزيد انظر كتاب: فهم الإنسان «النظرية المعرفية العربية»، عمران سميح نزال، دار قتيبة دمشق وبيروت، ودار القراء بعمان، الطبعة الثانية، 1422هـ ـ 2002م، النظرية الكلامية ص 139.

(2) انظر: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبدالرحمن الكواكبي، دراسة وتحقيق الدكتور محمد جمال طحان، دار الأوائل، دمشق، الطبعة الأولى، 2003م، ص51.

— 2 —

وكلما رغبت أن أطلع علىٰ معنىٰ كلمة عربية في معاجم اللغة العربية، والتفكر في مكوناتها من الأحرف ومعناها علىٰ طريقة ابن جني في كتابه سر صناعة الإعراب، أتذكر كلمته المشهورة من تحيره في شأن هذه اللغة إن كانت من تواضع الناس أم من إلهام رب الناس[1]، لما في اللغة العربية من كثرة لفظية وعظمة معنوية وسعة عقلية ومطابقة علمية وقدرة فكرية، والمثال الذي نطرقه دليل علىٰ ذلك وهو كلمة الاستبداد، التي يبدو للوهلة الأولىٰ أنها كلمة معروفة المعنىٰ لسانياً ولغوياً، لساناً أي في استعمال الناس لها اليوم، ولغة في معناها من معاجم اللغة العربية الأصيلة.

قال ابن منظور في لسان العرب: (أبد: الأبد: الدهر، والجمع آباد وأُبود، وفي حديث الحج قال سراقة بن مالك: أرأيت مُتعتنا هذه ألعامنا أم للأبد؟ فقال: بل هي للأبد.. أي لآخر الدهر..

وأبد بالمكان يأبِد، بالكسر، أبوداً: أقام به ولم يبرحه..

والتأبيد: التوحش،.. والأوابد والأبَّد: الوحش، الذكر آبد والأنثىٰ آبدة، وقيل سميت بذلك لبقائها علىٰ الأبد.. (3/ 68).

وتأبد المنزل: أي أقفر وألفته الوحوش،..

وقولهم جاء بآبدة أي بأمر عظيم يُنْفَرُ منه ويستوحش، وتأبدت الدار: خلت من أهلها وصار فيها الوحش ترعاه،..

والآبدة: الداهية تبقىٰ علىٰ الأبد، والآبدة: الكلمة أو الفعلة الغريبة. وجاء فلان بآبدة أي بداهية يبقىٰ ذكرها علىٰ الأبد.. ويقال للطير المقيمة بأرض شتاءَها وصيفها: أوابد من أبد المكان يأبِدُ فهو آبد..

---

(1) انظر كتاب: الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1990م، 1/ 35.

ويقال: وقف فلان أرضه وقفاً مؤبداً إذا جعلها حبيساً لا تباع ولا تورث.. (3/ 69).

وقال ابن منظور في موضع آخر: بدد: التبديد: التفريق،.. وبدد الشيء فتبدد: فرقه فتفرق، وتبدد القوم إذا تفرقوا. وتبدد الشيء: تفرق.

وفي الدعاء: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً،.. يروىٰ بكسر الباء، جمع بِدة وهي الحصة والنصيب، أي اقتلهم حصصاً مقسمة لكل واحد حصته ونصيبه، ويروىٰ بالفتح، أي متفرقين في القتل واحداً بعد واحد من التبديد.. (3/ 78).

والعرب تقول: لو كان البَداد لما أطاقونا، البداد بالفتح: البراز، يقول لو بارزونا، رجل لرجل..

ويقال: لقي فلان فلاناً فابتداه بالضرب، أي أخذه من ناحيته. والسبعان يبتدان الرجل إذا أتياه من جانبيه، والرضيعان يبتدان أمهما: يرضع هذا من ثدي وهذا من ثدي.. ويقال: أبدَّ يده إذا مدها. (3/ 79)

واستبد فلان بكذا أي انفرد به،.. يقال: استبد بالأمر يستبد به استبداداً إذا انفرد به دون غيره، واستبد برأيه: انفرد به)[1].

— 3 —

هذه بعض معاني جذر كلمة الاستبداد في اللغة العربية وفي لسان العرب تحديداً، وفي هذه المعاني من التقارب ما يبين معنىٰ كلمة الاستبداد علىٰ معنىٰ فريد قد لا يوجد في لغة أخرىٰ، فما من كلمة يمكن أن تحمل كل هذه المعاني في التأكيد علىٰ المعنىٰ المشترك الذي تقوم به هذه الكلمة، وما يمكن أن تقوم به، وما يمكن أن توظف له في المستقبل، وبالأخص إذا تم استثمارها لغوياً وعقلياً واجتماعياً وفكرياً وسياسياً أيضاً.

فإذا بدأنا من حيث انتهىٰ لسان العرب، نجده وصل إلىٰ أن الاستبداد هو الانفراد

(1) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ ـ 1993م، 3/ 81.

بالرأي، وأن المستبد هو من انفرد برأيه، وهذا مطابق للمعنىٰ الفكري للكلمة، لأن الرأي من الفكر، ولكن انفراده برأيه هو استبداد منه دون تحديد الجهة التي ينفرد برأيه عنها، وعندما يقال: استبد بالأمر: إذا انفرد به دون غيره، لم يحدد من هو الغير الذي انفرد عنه برأيه، وهل هذا الغير مشارك له في الأمر أم هو في أمر خاص به، لا بد أنه مشارك له فيه، فلو كان الأمر خاصاً به لما وصف بالانفراد، لأن هذا حقه من حيث الأصل، أما انفراده فيعني أنه انفرد بما هو مشترك به مع غيره، أي أنه انفرد بأمر اجتماعي، أي انفرد عما يتطلب أن يكون فيه مشاركة في الرأي أو مشاورة فيه.

فالاستبداد لا يكون فيما هو من حق الفرد أن ينفرد به، وإنما فيما فيه حق للجماعة أو للآخرين المشاركة فيه، أو هم شركاء معه في الملكية وفي التصرف، سواء كان ذلك أسرياً أو عشائرياً أو اجتماعياً أو سياسياً أو فكرياً أو غيره، فالمستبد برأيه اجتماعياً هو المنفرد في رئاسة المجتمع الذي يعيش فيه، سواء كان أسرة أو قبيلة أو دولة، والمستبد برأيه سياسياً هو المنفرد برأيه في حكم الناس دون اختيار حقيقي منهم، والمستبد فكرياً هو المنفرد برأيه وقراره في حكم أتباع المذهب أو الحزب أو العقيدة التي يتبعونها، أي في أمر فيه للآخرين مشاركة فكرية، وليس أمراً شخصياً، أي أن كل انفراد في أمر عام هو استبداد، ولو كان اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً أو فكرياً، وكل منفرد في أمر عام هو مستبد، لأنه منفرد بما لا يجوز فيه الانفراد إطلاقاً.

— 4 —

فإذا ما عدنا إلىٰ الأسطر التي قبلها من لسان العرب، وجدنا أن الرضيعان يبتدان أمهما، إذا أمسك كل واحد منهما بموضع رضاعته، دون أن يترك أحدهما ما انفرد به، وكذلك السبعان يبتدان الرجل إذا أتياه من جانبه، وهنا الابتداد من الاثنين علىٰ الواحد سواء كانت أماً أو رجلاً، أي أن الابتداد يمكن أن يقع من الكثرة علىٰ القلة، وهو الاستبداد الذي يقع من الأغلبية علىٰ الأقلية سواء كان في أمر فكري أو سياسي اجتماعي، مثل طوائف الأقلية التي تعيش مع أغلبية سكانية مغايرة لها في الدين أو الهوية الفكرية أو الانتماء الحضاري

أو غيره، فالغالبية هنا مستبدة إذا انفردت بالرأي ولم تشارك الأقلية في القرار.

ويقع الاستبداد من الواحد علىٰ الواحد، وهو قول العرب: لو كان البداد لما أطاقونا، أي لو لقي كل رجل رجلاً آخر ليبتد به، والانفراد هنا ليبارزه فيضربه، أو ليبدده أي يفرقه، لأن التبديد هو التفريق أيضاً، ومن ذلك نجد أن المستبد ليس المنفرد برأيه فقط، وإنما الذي يكون منه التبديد وهو المبارزة والضرب والتفريق للآخر الذي يعارضه في انفراده برأيه.

— 5 —

فإذا ما نظرنا إلىٰ فعل التبديد الذي يقع مبارزة وتفريقاً وينتهي بانفراد المستبد بضرب مبارزه وتفريقه وأخذ حقه وحصته، فقد تحول المنفرد برأيه إلىٰ آبد، أي إلىٰ وحش، مثل الأوابد، أي الوحوش، أي أن المستبد برأيه أو المنفرد برأي اجتماعي أو سياسي أو فكري هو متوحش علىٰ الآخرين الذين لهم حق المشاركة له في الحقوق الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو الفكرية، وهو بهذا الفعل قد أتىٰ بآبدة، أي بداهية يبقىٰ ذكرها علىٰ الأبد، أي أنه بسعيه لانفراده برأيه يستوحش علىٰ من معه بضرب رأيه وفكره، ويفرقه أي يمزقه ويقضي عليه، وبذلك يكون فعله الاجتماعي عدوانياً، وخلاف فعل البشر التي تسعىٰ إلىٰ التأنس وليس التوحش، فالمستبد برأيه اجتماعياً ينتقل من الفعل البشري الإنسي إلىٰ الفعل العظيم الذي ينفر منه ويستوحش، أي أنه ينتقل إلىٰ السلوك الحيواني كما لو كان في غابة.

وبذلك فإن المستبد برأيه في اللغة العربية هو المستوحش علىٰ غيره، بانفراده برأيه، ولا ينظر إلىٰ مقابله إلَّا أنه مبارزه ولا مجال أمامه إلَّا أن يأبد به، أي يفرقه ويقضي عليه، وهو بتأبيده هذا يمد يده علىٰ كل ما تصل يده إليه، بحق أو بغير حق، ولو كان حقاً لم يحتج إلىٰ الاستبداد إطلاقاً، أي أن المنفرد برأيه لا يكون إلَّا ظالماً، طالما أنه استبد بما فيه حق للآخرين أولاً، وتوحش عليهم بالاعتداء والضرب والتفريق ثانياً.

— 6 —

أما الأنواع التي يستبد بها فهي إما مكانية أو زمانية، والاستبداد المكاني إذا أقام المستبد بمكان أقام به ولم يبرحه، سواء كان هذا المكان مكاناً جغرافياً مثل احتلاله لبلد ليس له، أو فكرياً مثل تزعمه لحزب أو ترؤسه لدولة أو تأممه لمذهب أو قيادته لقبيلة، فمن أقام بمكان لا يريد أن يبرحه وانفرد به دون مشاركة الآخرين فيه، فهو مستبد متوحش علىٰ هذا المكان، سواء كان مكاناً سياسياً أو اجتماعياً أو فكرياً أو غيرها، والمتأبد لهذا المكان في لغة العرب هو مقفر له من تأبد المنزل أي أقفر وألفته الوحوش، حتىٰ لا يوجد فيه إلَّا هو، أي أن الاستبداد ليس انفراداً بالرأي الاجتماعي فقط، وليس مبارزة وتفريقاً وتوحشاً وانفراداً بالمكان فقط، وإنما هو إقفار له، والمقفر لا شيء عنده ومخرب لما معه، فالاستبداد بالمكان لا تكون نهايته إلَّا التخلف والدمار والتخريب والفقر والبطالة والظلم.

وأما الاستبداد الزماني فهو ممن لا يبرح المكان الذي هو مستبد فيه إلىٰ أبد الدهر، فكل مانع مفارقة مكان ليس له فيه حق مهما طال زمنه، هو مستبد به زمانياً، أي متوحش علىٰ أهل ذلك الزمان، سواء كانت المدة الزمنية في أمر اجتماعي أو سياسي أو فكري أو غيرها، فمن لا يفارق زعامة حزب أو إمامة مذهب أو رئاسة طائفة أو سلطان دولة أبد الدهر، أو تزعم زيادة علىٰ ما يحق له شريعة هو مستبد به، ومتوحش فيه، ومقفر له، مهما ادعىٰ من الحيل والمكائد.

فكلمة الاستبداد في اللغة العربية لا تقف عند المعنىٰ اللغوي وهو الانفراد بالرأي فقط، وإنما تجعله توحشاً علىٰ غيره من البشر، وتجعله مقفراً للمكان الذي يحل به ولا يبرحه، وتجعله قد أتي بفعلة غريبة وعظيمة علىٰ أبد الدهر، فلا ينسىٰ شرها المستضعفون إذ عرفوا للحرية سبيلاً.